

سيمياء الشخصية في رواية "حلم رجل مضحك" لفيودور دوستويفسكي

The semiotics of character in Fyodor Dostoevsky's novel "The Dream of a Ridiculous Man"

فواز معمري*

جامعة الحاج لخضر - باتنة 1

faouaz.maameri@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2026-06-01

تاريخ الإرسال: 2026-02-01

ملخص:

تعد الرواية من الأعمال السردية المنفتحة على تعدد القراءات، لما تحتويه من علامات ورموز وفق نظام سردي علائقي معقد، لامتزاج الرؤى الفلسفية والنفسية والاجتماعية داخلها. فالكاتب يقدم لنا من خلالها تأملات فلسفية تجعل من قارئها يراها مجالاً خصباً لتطبيق المنهج السيميائي بغية توليد المعاني المضمرة، وبالتالي تكون نموذجاً سردياً لنا يمكننا من ممارسة تحليل سيميائي لقراءة عميقة لهذه الرواية. من هذا المنطلق جاءت هذه الورقية البحثية للكشف عن الدلالات السيميائية التي تحملها شخصيات رواية حلم رجل مضحك، وذلك من خلال تتبع أنساقها العلاماتية المتعددة.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الدلالة، السيمياء، العلامة، السردية.

Abstract:

The novel is a narrative work open to multiple interpretations, due to its complex system of signs and symbols within a relational framework. This framework blends philosophical, psychological, and social perspectives, offering the reader philosophical reflections that make it a fertile ground for applying semiotic methods to generate implicit meanings. Thus, it becomes a narrative model that allows us to conduct a semiotic analysis for a deeper reading of the novel. This research paper aims to uncover the semiotic meanings conveyed by the characters in the novel "The Dream of a Ridiculous Man" through their various semiotic systems.

Keywords: Novel, Meaning, Semiotics, Sign, Narrative

مقدمة:

في ظل التحولات الفكرية والفنية التي شهدها العالم المعاصر، وفي زمن أصبح فيه الوعي الإنساني سائرا نحو إدراك المعنى، صارت الرواية فضاء خصبا لتشكيل الدلالات وتناسل المعاني، فهي أحد أهم الأجناس الأدبية السردية التي تعكس الواقع الإنساني بكل تعقيداته، من خلال تفاعل مجموعة عناصر تتمثل في شخصيات وأحداث ضمن زمن ومكان محددين، فلم تعد الرواية تقرأ باعتبارها مجرد حكاية، بل تطورت لتصبح خطابا إنسانيا معقدا يمثل مرآة للمجتمع حاملا رؤى فلسفية وفكرية ونفسية، في شكل علاقات متشابكة ومتداخلة من المعاني والعلامات، فزاد الاهتمام بالكتابات الروائية الحديثة عن طريق إعطائها مساحة للتحليل الأدبي والفني، وذلك من خلال المناهج النقدية الحديثة وقد كان أهمها المنهج السيميائي باعتباره قادرا على الغوص في أغوار النصوص وكشف علاقاتها المعقدة وبنياتها الخفية، فهو أداة تحليلية تسعى لتفكيك النظام العلاماتي للبناء النصي الذي يعد خطابا معقدا من العلامات والرموز التي تنتج المعنى وتنقله. فالسيميائية كمنهج تتجاوز ما هو لغوي إلى ما هو غير لغوي من إشارات وصور ومختلف الدوال العلاماتية، وهذا ما يوفره لها الخطاب الروائي الذي يعد بناء سرديا متكامل غنيا بالرموز الثقافية والصراعات النفسية ومختلف الأيديولوجيات المضمرة التي تحكم العالم الروائي، فيسعى المنهج السيميائي للكشف عنه، مما يفتح آفاقا جديدة للقارئ نحو التأويل وتوليد المعاني والدلالات التي تتعدى القراءة السطحية.

1- سميائية الشخصيات ووظيفته المرجعية:

1.1- الشخصيات الرئيسية:

تعد الشخصية الرئيسية في العمل الروائي هي المحرك الأساسي لكل الأحداث، وهي التي يركز عليها البناء السردية، ذلك أنها تربط بين باقي العناصر السردية وتتفاعل معها في سياقات مختلفة ووفق أحداث معينة. ويعرف غريماس الشخصية بأنها: "مجموعة العوامل التي تبقى ثابتة وفق منظومة معينة، وأن هذه الشخصية يمكن أن يؤديها عدد لا نهائي من الممثلين"، فقد ربط غريماس الشخصية بالعامل والذي يعتبره بنية ثابتة في السرد مهما تغيرت الشخصيات. وقد تضمنت رواية دوستويفسكي التي بين أيدينا على شخصية رئيسية واحدة وهي الراوي نفسه.

- الراوى (الرجل المضحك):

تمثلت الشخصية الرئيسة فى الراوى والذى تجسدت فيها كل أنواع المشاعر، المتناقضة والمتباينة بين حزن وفرح وبين لامبالاة واهتمام وبين غموض ووضوح؛ وغيرها من المشاعر والأحاسيس المختلطة التى كان البطل رهينتها، وهذا ما يتفق مع تعريف عبد المالك مرتاض للشخصية؛ حيث يقول: "الشخصية هذا العالم المعقد الشديد التركيب، المتباين التنوع...".

ففى حالة من التعقيد اللامتناهى والذى حاول الكاتب من خلالها أن يضع أمامنا شخصا يعانى من العثية واللاوجود واللا معنى، لم يضع اسما معينا للبطل وإنما كان يُنعت بالمضحك من طرف المحيطين به؛ هذا اللقب الذى لازمه منذ صغره وأزعجه فى البداية، لكنه سرعان ما تجاوزه كون الحزن يرافقه دوما ولن يكون لهذا اللقب تأثير عليه، بل يشعر بالأسى عليهم، فيقول: "ولو لم أكن شديد الحزن وأنا أنظر إليهم لضحك معهم -ليس على نفسي بالطبع- ولكن لى أسرى عنهم، شديد الحزن لأنى أراهم يجهلون الحقيقة، بينما أعرفها أنا"¹.

فرجل مضحك هى التسمية التى اختارها الكاتب لهذه الشخصية أو لنقل لشخصه فقد كان هو السارد وهو البطل فى الآن ذاته. كان مضحكا بالنسبة للمحيطين به كاستهزاء به ومضحكا بالنسبة لنفسه لأنه كان يحمل أفكارا لا يفهمونها هم ولا هو، لكنه يشعر بالتميز عنهم. هذا الرجل كان يعيش حالة من الغموض الذاتى، صراع داخلى بين ما يشعر به وبين ما يراه الناس عليه فهو يرى أنهم لا يفهمونه وأنهم بعيدون عن تفكيره وعن عقله الواعى لما حوله وللعالم الوجودى؛ رغم أنه عاش معظم حياته يعلم أنه فعلا مضحك لسبب ما يعلمه هو، حيث سيطرت عليه الكآبة والحزن الشديدين، وحالة الغربة والتناقض بين حقيقة هذا الوجود من عدميته: "فى البداية كان قد تراءى لى أن أشياء جمّة قد وجدت من قبل، ثم أدركت أن لا شيء من قبل قد وجد أيضا، ولكن لسبب ما تراءى لى ذلك الوجود. وشيئا فشيئا أيقنت أن لا شيء أبدا سيكون"².

1.2- الشخصيات الثانوية:

¹ فيودور دوستويفسكى، حلم رجل مضحك، المركز الثقافى العربى، بيروت، لبنان، ط1، ص31.

² الرواية، ص 34.

وهي الشخصيات التي تكون مساندة للشخصية الرئيسية، فتدعمها أو تكون سببا في موقف ما أو تؤثر في حدث ما يخص البطل، فهي "ضرورية للقصة لأنها تطرح الوجه المقابل للبطل أو توضح بعض صفاته أو تقدم له شيئا من المساعدة"¹، وعادة ما تكون الشخصية الثانوية قليلة الظهور والتطور في الرواية وقد ظهرت في رواية دوستويفسكي شخصيات ثانوية قليلة نظرا لتركيزه على شخصية البطل والأحداث التي كانت محور الرواية.

- الفتاة الصغيرة:

تظهر هذه الشخصية في بداية الرواية مساندة للشخصية الرئيسية وذلك من خلال منعه من فكرة الانتحار والموت، فبينما هو متجه بكل إصراره إلى شقته لكي ينتحر في إحدى الليالي الباردة والممطرة، يتصادف مع هذه الفتاة الصغيرة التي كان يظهر عليها البؤس والخوف، وعلامات الحزن بادية عليه فتقطع طريقه وتطلب منه المساعدة، فينهرها ويتركها. قلت لها: "في البداية أن تبحث عن شرطي، ولكنها أسرعرت تضم يديها الصغيرتين وتتضرع مبتهلة وتركض إلى جواري رافضة تري"².

لكن لاحقا يحسب تأنيب الضمير اتجاهها، وتحبي فيه الاحساس بمن حوله، فيحس بشعور المبالاة بعدما فقدوه وهو ما يجعله يعيد التفكير في فكرة الانتحار، حيث يقول: "لقد شعرت بالشفقة منذ قليل: كان بإمكانني أن أساعد تلك الطفلة دون تردد، فلماذا لم أفعل؟"³ فقد أحدثت هذه الفتاة الصغيرة تغييرا كبيرا في نفس البطل، حيث حركت مشاعره وضميره الغائب المنسي، وبالتالي يمكننا القول إن الطفلة هي التي أسهمت في هذا التغير وتحويل نفسيته وفكره.

- الكائن الغامض:

وهو كائن غريب مجهول كان ضمن الحلم، حيث أخذ البطل من القبر وطار به بعيدا في الفضاء وحمله إلى مكان يشبه الأرض في شكل جنة، حيث وصفه بذلك في قوله: "لكنني أحسست أن كائنا غامضا

¹ غريد الشيخ، الأدب الهادف في قصص وروايات غالب حمزة، أبو الفرج، قناديل للتأليف، والترجمة والنشر، ط1، ص392.

² فيودور دوستويفسكي، حلم رجل مضحك، ص41.

³ المرجع نفسه، ص46.

ومجهولاً أمسكنى وطار بي في الفضاء، فهذا الغامض انتقل به من مرحلة الموت إلى الحياة الأخرى، فهو يعدّ وسيطاً بين هاتين المرحلتين.

سكان العالم الغيبي (المثالي):

تمثل في الشعب الخارق للعادة يسكن عالماً كاملاً الجمال والقيم مثيلاً للجنة، ونلمس من وصفه لهذا العالم المثالي فكرة تظهر لنا حقيقة الإنسان الأولى منذ بداية الوجود. هي فكرة فلسفية عميقة جداً حيث يضعنا هذا الشعب في حيرة وتعجب واندهاش وتساؤل، فقد عاش هذا الشعب مرحلتين؛ في البداية سادته النقاء وطهارة القلوب وصفائها وكأنهم في جنة، ويتجلى ذلك من الرواية في قوله: "فبعد كل ذلك الحب والسلام وفجأة سقطوا في المنكر والخطيئة وانتقلوا إلى عالم سيء يملأه الحقد والكراهية، وهي المرحلة الثانية النزول إلى العالم الناقص الكمال".

لقد كانت هذه الشخصيات محركاً قوياً ودافعاً للبطل نحو تحسين حياته وتغيير أفكاره، فقد رافقوه طيلة الحلم بحبهم له وتقديم نظرة عن معنى الحب والتسامح والمشاركة، حيث قدم له سكان هذا العالم الحياة في أبهى صورة، جعلوه يستمتع بها ويعرف كيف يعيش ويرضى.

1.2- أبعاد شخصيات الرواية:

- البعد النفسي:

يمثل الحالة الانفعالية النفسية للشخصية، التي تظهر من خلال المشاعر نتيجة الصراعات الداخلية والمكبوتات، وقد تكلم عن البعد النفسي كثير من الفلاسفة والنقاد، منهم فرويد الذي أسس نظرية الكبت: "والتي يرجعها في الأصل إلى الصراع بين رغبتي متضادتين، يحدث هذا الصراع في منطقة الشعور، وينتهي بحكم النفس لصالح إحدى الرغبتين والتخلي عن الأخرى، وهذا ما يجعل النفس تتضرر بفعل الصراع فتعيش الكبت، وبالتالي تنتقل الرغبة من مجال الشعور إلى اللاشعور"¹، ففرويد من خلال هذه النظرية يرى أن شعور الكبت لدى النفس يولد رغبتي متضادتين تتصارعان داخلها، ليظهر أحدها في شكل لامبالاة، وقد تجلت مشاعر الشخصيات في الرواية بكثرة خاصة البطل الرئيس، كونه قد عاش عدة مواقف مع كل الشخصيات، فمنذ بداية الرواية نلاحظ أن البطل كان في حالة صراع

¹ فوزية بوقنديل، 1998، الاتجاه النفسي في الرواية العربية، محاضرات في مقياس السرديات العربية الحديثة والمعاصرة،

داخلي نفسي؛ نفسه من جهة وعالمه الغريب الذي جعله يحس بالتناقض من جهة أخرى، وكذا نتيجة النظرة الدونية إليه من طرف مجتمعه بأنه مضحك، وشعوره بالألم والحزن لذلك، ونلمس ذلك في قوله: "فيما مضى تأملت كثيرا حين بدوت مضحكا، لماذا أقول بدوت؟! لقد كنت مضحكا، دائما كنت مضحكا، وأعلم ذلك، ربما منذ ولادتي، كنت كذلك، ولعلي عرفت هذا في السابعة من عمري"¹، إن ما نلاحظه من قوله إن هذا النعت كان مصاحبا له منذ صغره، فقد كان يشعر بذلك وازداد ألمه أكثر حين أجمع الناس كلهم على هذا اللقب، لقد عزز هذا الأمر في نفسه الإحساس بقلة التقدير وعكس شعوره بالاعترا ب النفس العميق. أيضا صراعه الداخلي كان بسبب كان يجهله لكنه كان يؤثر عليه بشكل كبير؛ ذلك حين يقول: "وما كل ذلك إلا لجهلي التام بحقيقة حالي هذه، ربما يعود الأمر إلى تلك التعاسة الغامرة التي سيطرت علي إثر حالة أقوى مني، حالة اقتنعت فيها بشكل راسخ وثابت أن لا شيء في هذه الحياة يستحق الاهتمام"²، نلاحظ هنا أن الكاتب قد مرر إلينا من خلال كلامه هذا أمرا كان السبب الكبير فيما آلت إليه حالته، هذا الشعور هو ما يعرف في علم النفس بالمكبوتات التي تظهر لاحقا في صور مختلفة، وكما نلاحظ أن الكبت داخله لأمر مضى مازال يؤثر فيه ويظهر ذلك من خلال فقدانه للرغبة في الحياة، مما ولد لديه أيضا شعورا آخر وهو عبثية الوجود بالنسبة له ووجوده بالنسبة للعالم، فلم يعد للحياة معنى في نظره.

ثم تتوالى مشاعر جديدة تغير نظرتة جذريا لتتعاضم داخل حلم يعيشه، ويستيقظ منه وهو بواقع جديد وحب كبير للعالم ولمجتمعه الذي كان ينفر منه. فشعور الأمل والرغبة في الحياة جعله يحمل هم رسالة مفادها تغيير الواقع ونشر الحب بين الناس، والبحث عن تلك الفتاة، فالبعد النفسي الذي نلاحظه عند الشخصيات الثانوية فهو يتجلى بداية مع الفتاة، تلك الطفلة الصغيرة التي كانت المساند والمحرك للرجل المضحك، حيث استطاعت بمشاعر البراءة والطفولة أن تؤثر وتسيطر عليه، فحركت فيه الأحاسيس وأحييتها داخله. فعالة الفتاة البائسة اليائسة وحاجتها جعلتها تتوسل إليه ليساعدها. ونلمسه في قوله: "غرغرت ببعض الكلمات التي لم تستطع نطقها جيدا، بسبب البرد وارتجاجها بقوة، بدت مدعورة لأمر ما"³، تظهر لنا حالة الطفلة الصغيرة ومشاعر الخوف والذعر التي تبدو عليها.

¹رواية، ص31.

²المرجع السابق، ص33.

³الرواية، ص40.

ومن الشخصيات الثانوية أيضا نجد سكان العالم المثالي، تتراءى لنا أبعادهم النفسية ثابتة في البداية ثم تتغير لاحقا. حيث في بداية الحلم كان يعمهم السلام والحب ومشاعر الامتنان ويظهر ذلك في قوله: "لقد كانوا فرحين مرحين كالأطفال، يطوفون في أرجاء غاباتهم ويتغنون بأغانهم الرائعة، فهم يكتفون بثمار أشجارهم وعسل غاباتهم وحليب حيواناتهم المحبوبة...."، كانوا أصفاء قلوبهم بريئة لم تدنس بعد، فقد شههم بسكان الجنة، لكن تغيرت نفسياتهم فيما بعد حين زرعت داخلهم فتنة الكذب وانتشرت بينهم فتفرقوا؛ حيث يقول: "لقد تعلموا الكذب وأحبوه وعرفوا مواطن الجمال فيه...، لكن ذرة الكذب تلك تسربت إلى قلوبهم وأعجبهم. بعد ذلك ظهرت اللذة بسرعة، واللذة ولدت الغيرة، والغيرة بدورها ولدت القسوة... اه، لا أعلم، لا أذكر لكن بعد قليل سفح الدم الأول: فدهشوا وذعروا، وتفرقوا، وتباعدوا عن بعضهم"¹. فمشاعرهم وبراءتهم تحولت إلى كل صفات السوء. ذرة كذب أظهرت وجهها آخر لهم، يعكس هذا مدى واقعية البشر وتأثيرهم وتأثرهم، فقد أثروا عليه لفترة وأثر عليهم هو أيضا لاحقا، وللأسف كان تأثير الشر أسرع، وهذا ما يصور لنا بدايات الإنسان كيف يكون على الفطرة، ثم يتأثر بمن حوله فتتغير مبادئه.

- البعد الجسدي: يرتبط بصورة الجسد وتمثالاته في الرواية، بالأحوال والملاحم الجسدية للشخصية، يعكس موقف الذات من نفسها أو من الآخر. وهذا ما مثلته الشخصية الرئيسية (رجل مضحك) فهي صفة نُعت بها والواضح أنهم كانوا يقصدونه بها كله أي شكلا وعقلا، ونلمس ذلك من قوله: "وعاما بعد عام كنت أزداد يقينا بأن لي شكلا مضحكا في شتى المجالات. لقد ضحك عليّ الجميع في كل مكان"، فنفهم من ذلك أن شكله كان مضحكا ومظهره يدعو للاستهزاء والضحك. أما الشخصية فتمثلت في الفتاة، فقد اكتفى الراوي بوصف مظهرها، حيث كانت بملابس رثة وحذاء مثقوب ويظهر ذلك في الرواية بقوله: "الطفلة كانت في الثامنة، تغطي رأسها بمنديل، وتستتر بثوبها فقط، وهي مبلة تماما وقد لفت انتباهي حذاؤها المثقوب المبلل"². وبالتالي؛ فمظهرها كان باليا، تبدو عليها علامات الفقر والاحتياج. أما شخصية الرفيق الغامض الذي ظهر له في بداية الحلم، لم يرد له وصف جسدي، بل كان غامضا مجهولا، غير أنه ذكر ما يدل على أنه لم يكن عاديا مثلنا: "لكنني

¹ المرجع السابق، ص 84.

² الرواية، ص 39.

أحسست أن كائنا غامضا ومجهولا أمسكني وطار بي في الفضاء"¹، فهذا يدل على أنه يطير وهي صفة ليست في البشر، بل صفة تخص الملائكة لأنه كان واعيا بما يقوم به.

- البعد الاجتماعي: يقصد بالبعد الاجتماعي التفاعل داخل المجتمع، أي علاقة الفرد بمجتمعه ومدى تأثره، وينعكس ذلك في تصرفات الفرد ومشاعره، لذلك نجد معظم الكُتّاب يركزون على إظهار هذا الركن في إنتاجهم الأدبي، ونجد ذلك أكثر في الرواية؛ لأنه "يمثل سمة جوهرية، وركنا أساسيا من أركان الرواية. بل يمكن أن نقول: إنه يمثل حجر الزاوية فيها؛ ذلك لأن الأحداث جميعها تدور في نطاق شبكات العلاقات الاجتماعية وصور التفاعل الاجتماعي للشخصيات التي يتناولها المؤلف"²، فهو يشكل أهمية في إدراك الشخصيات وإبرازها؛ لأنها تمثل صورة المجتمع فيها. وشخصية الرجل المضحك في رواية دوستويفسكي كما هو واضح هي شخصية تعاني من التعقيد والتناقض، وهذا نتيجة لمشاعر الغربة التي تسكنه، فقد عانى من التهميش ما جعله يحس بفقدان الانتماء لمجتمعه وانفصاله عنه، فهو منذ طفولته يشعر بالغربة عن صحبه ومجتمعه وأنه بعيد عنهم، ومنعزل تماما عن مشاركتهم والتفاعل معهم. وأما في الحلم فقد حصل العكس فالرجل شعر بالانتماء لهذا المجتمع، الذي يعكس التناقض الذي ميز مجتمعه الذي جاء منه، نجد ذلك في الرواية في قوله: "أحس أن قلبي في حضرتهم يصبح بريئا وصادقا كقلوبهم كنت حينها لا أشعر بالندم أني لا أفهمهم. وتحت تأثير الإحساس بامتلاء الحياة بينهم كانت تنقطع أنفاسي وأبدأ بالصلاة لأجلهم صامتا"³، يبرز لنا الراوي انتمائه لهذا المجتمع وكأنه وجد ضالته فيه، فأحبوه وأحبهم وشعر بطعم الحياة من جديد. والمتتبع أما للشخصية الثانوية والمتمثلة في الفتاة فهي تعاني الفقر والحاجة وهو ما ساقها لتطلب المساعدة من البطل، "بدت مذعورة لأمر ما، ثم صرخت يائسة فالفتاة تتوسل إليه بسبب أمر خطير أصابها وهو يخص أمها، تجسد شخصية الفتاة حالة الفقر المدقع الذي يؤدي بالإنسان إلى التذلل للآخرين من أجل الرأفة بهم ومساعدتهم، ويعكس لنا تصرف الراوي عينة من الأشخاص الذين لا يبالون بالأم المحتاجين.

¹ المرجع نفسه، ص 60.

² حسن أحمد الخولي، 2013، المرأة في أدب حسن البنداري، مجلة "الرواية قضايا وآفاق"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 10، ص 219.

³ الرواية، ص 81.

- البعد الأيديولوجي: وفي هذا البعد ينظر إلى توجه الشخص ومنهجه الذي يتبعه، أي موقف الفرد من عالمه وواقعه ونظراته التي تحدد سلوكه، فالإيديولوجية هي "علم الأفكار أو معتقد أو مذهب فكري سياسي تعتنقه جماعة بشرية في تصورات وأفكار اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية"¹؛ إذن فهذا البعد يكشف عن هوية الشخصية الروائية، وحتى كاتب الرواية لأنه عادة يضع توجهاته وخلفياته الفكرية داخل روايته مجسدة في شخصية ما. وهذا ما نلاحظه في رواية دوستويفسكي. فالبطل في هذه الرواية يتحول من العبث واللاجدوى إلى الإيمان بحقيقة الوجود ورسالة الحب السامية التي أصبح ساعيا لتبليغها؛ حيث إنه قبل الحلم كان يرى عدمية الكون فهو يعتقد "أن لا شيء قد وجد أثناء وجودي أنا. في البداية كان قد تراءى لي أن أشياء جمّة قد وجدت من قبل، ثم أدركت أن لا شيء من قبل قد وجد أيضا"²؛ يعكس هذا فكر الراوي الذي يبثه من خلال روايته فدوستويفسكي يعرف بأنه ملحد، وهو بهذا لا يعترف بحقيقة الكون وبعثية الحياة، ثم يظهر لاحقا وبعد الحلم توجهها فكريا جديدا للراوي بسبب تأثره بالمجتمع الذي عاش معه في الحلم واكتشف حقيقة كان يشك. إن تصوير الراوي لشخصيته الغريبة والتداخل النفسي الذي كانت تعيشه، كان منسجماً فقد ركز فيه على التناقضات النفسية التي كانت تسيطر على الشخصية، أي الراوي والتحويلات التي طرأت على حياته وأثرت في نفسيته، وكانت مرحلة الانفتاح والانتقال إلى النظرة التفاضلية.

1.3- الوظيفة المرجعية لشخصيات الرواية:

إن شخصيات أي رواية تؤدي دورا بارزا في تطور أحداث القصة ولا يمكن أن توجد أحداث دون شخصيات، وذلك عن طريق الوظائف الأساسية التي تقوم بها هاته الشخصيات وتظهر من خلال القراءة المتمعنة والتلقي الجيد وفهم الحكمة، ويعد رومان جاكبسون أول من تكلم عن هذه الوظائف وحددها وذلك في سيميائية التواصل التي تسعى لتحليل العناصر التفاعلية فيما بينها في البناء السردى، حيث "أحصى ستة عوامل للفعل الاتصالي ورأى أن لكل عامل من عوامل الفعل الاتصالي وظيفة لسانية

¹ حنين إبراهيم معالي، 2017، البعد الأيديولوجي في رواية موسم الحوريات وأبناء الريح وأثره في البناء الفني، دراسات،

العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 44، ع 1.

² المرجع السابق، ص 34.

تناسب معه، وهذا يكون عدد العوامل مساويا لعدد الوظائف¹؛ فهذه الوظائف لها مرجعيات في البناء السردي مرتبطة بعوامل تتمثل حسب رومان جاكسون في: (العامل، المرسل، المستقبل، القناة، الشيفرة، الرسالة)، ويمكننا استخراج هذه العوامل ووظائفها من الرواية التي بين أيدينا وتحليلها، وفق ما جاء به رومان جاكسون، حيث إن شخصيات الرواية والتي تمثل عوامل برزت وظائفها في إطار البناء الروائي الذي يقتضي وجود عوامل أخرى لاكتماله، هذا التحليل يسمح لنا بتفكيك آليات الخطاب اللغوي من منظور لساني وظيفي وسميائي. وذلك داخل الرواية وخارجها، فيكون كالآتي:

- المرسل: ويتمثل في الراوي، فعلى المستوى الخارجي للرواية، كان منذ البداية في حالة فضفضة وبوح ذاتي، أراد من خلالها إيصال مشاعره ورغباته وسرد ذاته للقارئ، ونجد ذلك في قوله: "أنا رجل مضحك وهم ينعنونني بالمجنون، وقد كان من شأن هذا النعت أن يكون رفعا من قدري لو أنهم تراجعوا عن اعتباري مضحكا، كما فعلوا في السابق".²

نلاحظ هنا غلبة الوظيفة التعبيرية، إذ كان يعبر عن انفعالاته الداخلية ونقل أحاسيسه للمتلقى والتأثير فيه، من خلال محاولة تحريك شاعره واستمالته إليه، وبالتالي هنا تظهر لنا وفي السياق نفسه وظيفة أخرى للمرسل وهي التأثيرية.

- المرسل إليه: تمثل في المتلقي أو القارئ الذي يسعى الراوي أو المرسل إلى التأثير فيه وأن يشاركه مشاعره وأفكاره، وأن يصل معه إلى نتيجة حول تساؤلاته المختلفة، ونجد ذلك في قوله: "كم تعذبت في مراهقتي من أنني قد لا أستطيع التحمل وأعترف أمام رفاقي بأنني مضحك"³، فنجد هنا وظيفة تأثيرية تخص المتلقي، فالمرسل إليه في الرواية شملت عدة شخصيات في مواقف مختلفة، كالطفلة حين زجرها ونهرها البطل عنها فارتقت مبتعدة باحثة عن غيره للمساعدة، ويتمثل ذلك في الرواية بقوله: "عندها قرعت الأرض بقدمي ونهرتها، فما زادت عن أن تصرخ بي: (سيدي!... أيها السيد)، وغادرتني فجأة قاطعة الطريق مسرعة كالسهم، باتجاه شخص آخر على الرصيف المقابل"⁴، أثر في

¹ منذر عياشي، 2013، العلاماتية (السيمولوجيا)، قراءة في العلامة اللغوية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، ص4.

² الرواية، ص30.

³ المرجع السابق، ص33.

⁴ المرجع نفسه، ص41.

الفتاة الصغيرة تصرف البطل دون أن يتكلم معها، فهمت أنه لن يساعدها ويريدها أن تبتعد عنه، وبالتالي نلمس هنا أيضا وظيفة تأثيرية انفعالية للطفلة.

- السياق: بالنسبة على المستوى الخارجى، فإن رواية حلم رجل مضحك تعد شكل من أشكال الإنسان الحالم في نصوص الكاتب دوستوفسكي، حيث نشرت 1877م فقد كتبت في ظروف مشحونة بمأساة الكاتب الذي كان في السجن، وأثرت فيه التجربة فألهمته فكرة الكتابة عن الذات الإنسانية العائمة في قيود الهموم وغرابة الوجود، فالراوي هنا يخاطب القارئ الواقعي. أما السياق الداخلى تمثل في بداية الرواية في مجتمعه الذي أحدث فيه هذا الكم الهائل من اللامبالاة والنظرة التشاؤمية للحياة، وهو ما كان مرجعا آخر لتبليغ الحقيقة التي عرفها من قبل، وتؤكد منها لاحقا بعد الحلم.

- الشفرة: تعد الشيفرة علامة مشتركة بين طرفين يفهمها كلاهما، وفي هذه الرواية كانت لغة الراوي ممزوجة بين وضوح مباشر وبين رموز ضمنية تنوعت حسب المرسل إليه. فبين المرسل والقارئ نجد الشيفرة في مواضع من الرواية تمثلت في قوله "وبدأت أشعر وأحس بكل جوارحي أن لا شيء قد وجد أثناء وجودي أنا، لا أذكر لكن بعد قليل سفح الدم الأول: فدهشوا وذعروا، وتفرقوا، وتباعدوا عن بعضهم ثم بدأت المعركة لأجل الانفصال والفردية والشخصية لأجل: هذا لك وهذا لي"¹، فالمتلقي هنا تتبادر لذهنه رمزية الانتماء الفكري للراوي الذي تكونت لديه فكرة عدمية الوجود، وهنا يفهم أنه ملحد، كما يرمز في هذا النص إلى الخطيئة الأولى التي كانت على الجنة وأدت إلى نزول البشر إلى أرض الدنيا أين يكون الواقع مليئا بالمشاحنات وصراع الخير والشر، فالشيفرة التي هنا ترمز لخطيئة أبينا آدم عليه السلام وزوجه أمنا حواء.

نلمح أيضا رموزا ودلالات بين المرسل وشخصيات الرواية، فمثلا مع سكان العالم الآخر اللغة بينه وبينهم لغة غير واضحة وليست معينة، لكن رغم ذلك كان الفهم بينهما موجودا، فيقول: "أوه لم يسع أولئك الناس لجعلي أفهمهم، بل أحبوني دون ذلك، وقد فهمت بالمقابل أنهم أحيانا ما استطاعوا استيعابي ... وقد شعروا بذلك فتركوا لي أحبيهم وأودهم دون شعور بالجرح من قلوبهم"²، فربما لم تكن

¹ فيودور دوستوفسكي، حلم رجل مضحك، ص 34.

² المرجع نفسه، ص 74.

اللغة واضحة بينهما، لكن هناك إحساس ما جذبه إليهم وجذبهم إليه، تمثل في الحب، وهو رمز أبلغ اللغات وأجملها وأعمقها إبلاغاً وتأثيراً.

- القناة: أدى الإحساس دوراً بارزاً في نقل كل المعاني التي أرادها الراوي سواء بالخارج أو الداخل، فكان هو الناقل سواء للقارئ أو لشخصيات الرواية، حيث نستشف ذلك في كثير من المواضع من الرواية، فهو هنا كلامه مباشر للقراء صريح، يجعلهم يتشوقون للاستماع، فكان التنبيه هو المؤثر. والأمر نفسه داخلياً بينه وبين الشخصيات كان الإحساس هو الناقل بين الطرفين نجده مع الفتاة الصغيرة في قوله: "كان بإمكانني أن أساعد تلك الطفلة دون تردد، فلماذا لم أفعل؟"،¹ فكان ضميره هنا هو الناقل والوسيط الذي ربط بين ما أرادته الفتاة وما أحس به هو. وهذا ما يؤكد على التواصل الإنساني الصادق.

- الرسالة: تمثلت الرسالة في رواية حلم رجل مضحك: في رسالة واحدة وجهها للقارئ ولمجتمعها، وهي معرفته للحقيقة التي عاش يبحث عنها، وتمثلت في قوله: "إن وعي الحياة فوق الحياة نفسها، ومعرفة السعادة هي أعلى من السعادة"²؛ أي إن ليعيش الحياة لابد من فهم حقيقتها، وفهم الوجود فهما صحيحا، ولتذوق طعم السعادة لابد من معرفة قوانينها وأسسها التي تنبني على كل ما هو جميل، ونشر فكرة الحب بين الناس ليعم السلام، ويتذوق الجميع السعادة.

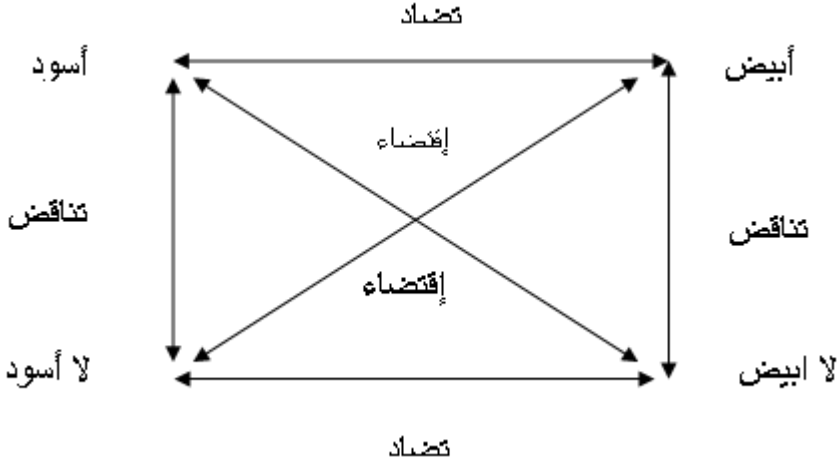
2.2- العلاقات بين شخصيات الرواية:

إن العلاقة بين شخصيات السرد الروائي تتمثل في مدى التفاعل بينهم، ويكمن ذلك في التأثير والتأثر الذي يتشكل من خلال ما يبثه الأطراف من مشاعر وقيم بين بعضهم بعضاً، ولعل أقرب طريقة للكشف عن العلاقات هو نموذج غريماس حول المربع السيميائي، الذي يعنى بتحليل العلاقات البنائية السردية، فهو عبارة عن: "نموذج تصنيفي يسمح بتمثيل نسق القيم، الذي ينظم العالم الدلالي الأدنى والذي هو في المستوى المؤنس تبعاً لضرورات التركيب

¹ المرجع السابق، ص 46.

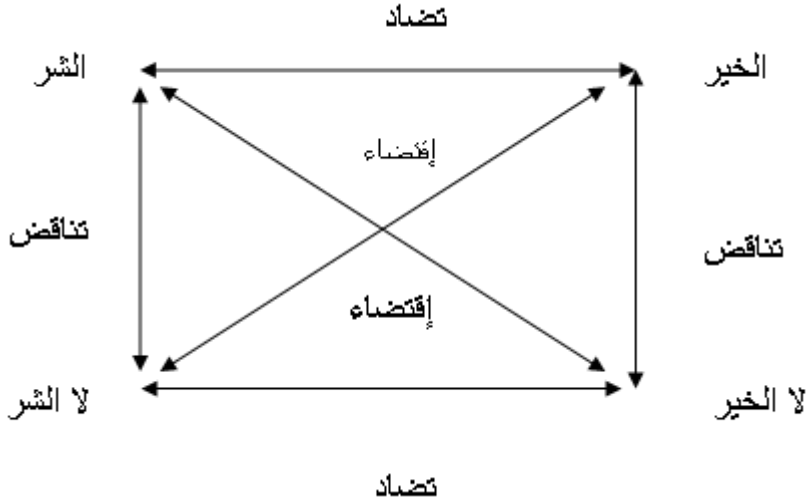
² المرجع نفسه، ص 98.

السردى¹، فالنموذج يسمح لنا بتحليل علاقات البناء الروائى والثنائيات الضدية والمتناقضة التى هى أساس هذه الرواية، وفهم المعانى العميقة فيها. سنقوم بتطبيق مربع غريماس فى رواية حلم رجل مضحك، وفق المثال الذى وضعه سعيد بنكراد فى كتابه السيميائيات السردية، وهو كالتالى:



يمثل النموذج التكوين أو المربع السيميائى باعتباره تأليفا تقابليا لمجموعة من القيم. رواية (حلم رجل مضحك) مشحونة بثنائيات ضدية كثيرة، نحصرها فى ثنائية الخير والشر التى شكلت أساس الرواية، وحسب مربع غريماس يكون التمثيل كالتالى:

¹دانيال باط، 1981، المربع السيميائى والتركيب السردى، تر: عبد الحميد بورايو، سلسلة وقائع سيميائية، مطبوعات فريق الأبحاث السيميولسانية، فرنسا، مج3، ع3، ص145.



ينتج لدينا من خلال المربع:

الخير: المتمثل في العالم المثالي الذي حلم به البطل حيث يكون الناس بكامل أخلاقهم وصفات الحب والسلام والأمان منتشرة بين بعضهم البعض. وقد وصفهم بذلك من خلال الرواية في قوله: ".... لأنهم هم أنفسهم كانوا ممتلئين بالحب"¹.

الشر: المتمثل في العالم الواقعي الذي عاش فيه البطل، وأيضا هو الذي يفسد به العالم الطاهر بمجرد وصوله إليه، حين قال: " ما أعلمه أنني أنا نفسي سبب الإثم الأول"². لا خير: وهي اللامبالاة التي كان يشعر بها البطل بين مجتمعه، ويعاملهم بها، ويظهر ذلك في قوله: "وشينا فشيئا أيقنت أن لا شيء أبدا سيكون. وعند ذلك أصبحت فجأة لا أغضب من الناس، بل ما عدت ألاحظ وجودهم"³.

لا شر: وتمثل في مشاعر العالم الآخر حيث ينعدم عندهم الشر، ونلمس هذا في الرواية في قوله: "إنها الأرض، قبل أن تلطخها الخطيئة، وعلمها يعيش البشر دون خطيئة"⁴. وبحسب مربع غريماس تنتج لدينا العلاقات التالية بين هاته الثنائية :

¹ الرواية، المرجع نفسه، ص 74.

² المرجع نفسه، ص 83.

³ المرجع السابق، ص 34.

⁴ المرجع نفسه، ص 69.

- خير مقابل شر = تضاد.
- لا خير مقابل لا شر = تضاد.
- خير مقابل لا خير = تناقض.
- شر مقابل لا شر = تناقض.
- خير مقابل لا شر = اقتضاء.
- لاخير مقابل شر = اقتضاء.

فالتضاد هنا يظهر في نفسية البطل بين عالم كان يعيش فيه يسوده الشر، وبين عالم مثالي سافر إليه عبر الحلم كله خير.

أما علاقة التناقض فقد ظهرت في الصراع الداخلي الذي كان يسيطر على البطل، بين اللامبالاة اتجاه العالم والناس في واقعه، وبين شعوره بتأنيب الضمير الذي أحيا داخله الأحاسيس، أيضا نجدها في الكمال والطهارة الفطرية التي كانت في سكان العالم المثالي قبل الدنس والشر الذي نشره موقع البطل بينهم، فهما يكمن التناقض لدى هذا العالم. وعلاقة الاقتضاء نلمسها في الحلم، حيث الصفات الجميلة والبراءة التي كان يتميز بها سكان العالم المثالي أثرت في البطل، ما اقتضى تأقلمه معهم وحبهم ورغبته في التغير والتغيير.

فمن خلال هذه المربع استطعنا الكشف عن العلاقات الثنائية الضمنية التي تختفي وراء البنى العميقة، وهي ثنائيات ضدية تعبر عن الجانب الأخلاقي في البشر ما بين ما هو مكتسب وما هو ضمني، صورت لنا مواطن التناقض والتضاد التي شكلت الصراع القائمة عليه روايته (حلم رجل مضحك).

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة وانطلاقا مما تقدم خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج: نذكر منها:

- إن المنهج السيميائي أداة تحليل إجرائية عميقة تفضي لنتائج دلالية متعددة ومنفتحة بانفتاح القراءات.

- منهج يركز على العلامة والإشارة باعتبارها مجال عمله؛ مستندا إلى خلفيات ونظريات وأسس منهجية تدعم إجراءه التحليلي.
- أظهر التحليل السيميائي لرواية (حلم رجل مضحك) أنها رواية متشعبة بشبكة من العلامات والرموز المتعددة ذات الدلالات والمعاني الخفية.
- كشفت وظائف التواصل لرومان جاكبسون عن هيمنة الوظيفتين الانفعالية والتعبيرية اللتان طغتا على البناء السردي، مما يعكس نفسية السارد التأملية والمضطربة التي تسعى لفهم ذاتها.
- العلاقات في البناء السردي وشخصيات الرواية علاقات معقدة يسودها فيها التناقض والتضاد، وهذا ما كشف عنه مربع غريماس عبر تحليل البني العميقة للرواية، مما عكس حالة النفسية المتضاربة بين الشخصيات.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- غريد الشيخ، الأدب الهادف في قصص وروايات غالب حمزة، أبو الفرج، قناديل للتأليف، والترجمة والنشر، ط1.
- 2- منذر عياشي، 2013، العلاماتية (السيمولوجيا)، قراءة في العلامة اللغوية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1.
- 3- حنين ابراهيم معالي، 2017، البعد الأيديولوجي في رواية موسم الجوريات وأبناء الريح وأثره في البناء الفني، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج44، ع1.
- 4- حسن أحمد الخولي، 2013، المرأة في أدب حسن البنداري، مجلة "الرواية قضايا وأفاق"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد10.
- 5- دانيال باط، 1981 المربع السيميائي والتركيب السرد، تر: عبد الحميد بورايو، سلسلة وقائع سيميائية، مطبوعات فريق الأبحاث السيميولوجية، فرنسا، مج3، ع3.
- 6- فيودور دوستوفيسكي، حلم رجل مضحك، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ط1.
- 7- فوزية بوقنديل، 1998، الاتجاه النفسي في الرواية العربية، محاضرات في مقياس السرديات العربية الحديثة والمعاصرة، المحاضرة.

